أرسطو والمفهوم الحديث للمسرحة النصية

د. سامية رشدان

قسم اللغة الفرنسية وآدابها

كلية الآداب – جامعة القاهرة

بدأت هذه الدراسة بمحاولة لتدقيق بعض مصطلحات الحكى المستخدمة فى دراسة وتحليل النصوص المسرحية ، ولكنها انتهت بضرورة العودة إلى أرسطو من أجل تحقيق ذلك، نظرًا لأنه أول من حدد مفاهيم دراسة المسرح الغربى على الطلاق .

هذا وقد تبدو محاولة تدقيق المصطلحات المستخدمة فى هذا المجال فى حد ذاتها محاولة ساذجة أو لا حاجة لها نظرًا لكثرة عدد القواميس أو المؤلفات الخاصة بذلك .

ولكن التجربة العملية أثبتت وجود مشكلة فعلية تواجه الطلاب عندما يطلب منهم الإطلاع على المراجع أو التوجه إلى القراءة الذاتية ، وتتلخص هذه المشكلة بصفة أساسية فى تعدد المصطلحات المستخدمة فى هذا المجال ، بل وتضاربها أحيانا .

واستعير هنا جملة وردت فى كتاب " مدخل إلى دراسة النصوص المسرحية" (Introduction ā L'analyse du The'âtre) لرنجار (Ryngaert) ، حيث يقول : أن مصطلحات الحكى الخيالى (La Terminologie De La Fiction) تختلف باختلاف الأزمنة ، مما يترتب عليه أحيانا استخدام كلمات غير دقيقة ، بمعنى آخر أن أحد أسباب عدم دقة مصطلحات هذا الحكى يرجع

إلى تعددها فيما يتعلق بالمفهوم الواحد ، أو إلى استخدام مصطلح واحد لعدة مفاهيم .

وإذا كانت جملة "رنجار" تحمل تفسيرا لهذه الظاهرة وكيفية حدوثها فهى تثير أيضا تساؤلاً آخر : هل يعد المسرح ضمن أعمال الحكى الخيالية ؟ بالقطع هذا التساؤل ليس بجديد ، وتعددت فيه وجهات النظر ، فإذا كان يقصد به تحديد ماهية المسرح ، وإذا اعتبرنا المسرح من أعمال الحكى الخيالى فلا بد أن نضيف إلى ذلك أنه عمل خيالى من نوع خاص يختلف عن أعمال الحكى الخيالى الأخرى نظرًا لأن المسرح يمزج بالخيال عناصر واقعية .

ويظهر هنا بعد آخر للمشكلة يتمثل فى التباين بين الإطار الإبداعى للعمل المسرحى ، وإطار دراسة هذا العمل ، فإن تحديد خاصية ماهية المسرح يجب أن يتبعه بالضرورة تحديد لخاصية المفاهيم المستخدمة فى دراسته .

وإذا كانت مصطلحات الحكى الخيالى فى مجملها بصفة عامة غير دقيقة فإن ذلك يصبح أكثر تعقيدًا فيما يتعلق بالمسرح الذى يجمع بين الخيال والواقع الملموس ، ففى هذا الإطار تصبح مصطلحات الحكى والتخيل بالقطع غير قادرة على التعبير عن هذه الثنائية الخاصة بعالم المسرح الذى يحتاج إلى مصطلحات دقيقة وفعاله تسمح بدراسة وتحليل هذا النوع من الأعمال بصورة كاملة ، أى من مختلف الجوانب . وإذا كنا مازلنا نستخدم فى دراسة النصوص المسرحية مصطلحات الحكى الخيالى فهذا يعنى وجود تفاوت بين إدراك خاصية الإطار الإبداعى للنص المسرحى وبين خاصية المفاهيم التى تدخل ضمن الإطار التحليلى لهذا النوع من النصوص والتى يأتى أغلبها من مفاهيم دراسة الحكى الخيالى بصفة عامة .

١ – فما هى هذه المصطلحات المستخدمة فى دراسة النصوص المسرحية ؟

٢ – وهل تدل هذه المصطلحات على وجود طرق متعددة وتنافسية لتحليل ودراسة النصوص المسرحية ؟

٣ – وهل تعد كلها ملائمة لتحليل النص المسرحى بمفهومه الثنائى ؟ أى الذى يجمع بين عناصر من الخيال والواقع ؟

الإجابة على كل هذه الأسئلة تبدأ بالرجوع إلى المصطلحات المستخدمة حاليا فى دراسة النصوص المسرحية .

المصطلح الأول : مصطلح درامى "Dramatique"

كلمة درامى وفقا لما يرد عموما فى القواميس ، هى صفة مشتقة من كلمة دراما ، والدراما بمعنى عام هى أدب المسرح ، ويقال درامى لوصف هذا النوع من الأعمال أى مسرحى أو تمثلى ، غير أن كلمة درامى تتعدى إطار هذا التعريف فعلى الرغم من أن لفظ درامى يقابله فى مجال الرواية لفظ "سردى" فإن الصفة الدرامية ، مع هذا ، ليست بدخيلة على المجال الروائى ، حيث تستخدم هذه الكلمة للحديث عن ديناميكية وتطور وتقدم الحدث الخيالى فى القصة ، ولا يقتصر استخدامها على وصف تطور الحدث فى العمل المسرحى (أو حتى فى الفيلم السينمائى أو المسلسل التلفزيونى) كما يوحى بذلك تعريف هذه الكلمة فى القواميس المختلفة بصفة عامة .

ففى هذه الحالات جميعها يتعلق الأمر بمستوى الحكى الخيالى (Le Plan Fictionnel) مما يحول النص المسرحى إلى عمل أدبى بالدرجة الأولى، غير أن تركيبة النص المسرحى تتعدى الإطار الخيالى وتتطلب تنسيقا مختلفا داخل كل مستوى من مستويات الحكى الخيالى (أى الحكاية والحبكة والحدث) من ناحية ، وبين هذه المستويات بعضها والبعض الآخر من ناحية أخرى ، تنسيق يأخذ فى الاعتبار تباين عناصر العمل المسرحى ، والتى تقوم على ثنائية الزمان والمكان التى تضم الواقع والخيال ، بداية من النص ذاته .

ويتمثل ذلك فى وجود الممسرحيات (Les Didascalies) أى التوجيهات التى يكتبها مؤلف المسرحية فى داخل النص ليتقيد بها المخرج والممثلون – وهى جزء لا يمكن تجاهله فى بنية أى عمل مسرحى ، فهو ينظم عناصر الحدوتة داخل إطار الزمن وحيز المكان تنظيما لا يقتصر على التنظيم الشكلى (L'Organisation Formelle) ولكنه يمتد إلى العرض على خشبة المسرح والعلاقة مع الجمهور.

ولنأخذ مثالا على ذلك الأعمال الكلاسيكية التى يتراجع فيها جزء "الممسرحيات" لصالح الحوار فيبدو الحدث لأول وهلة وكأنه يتطور داخل إطار خيالى ينفصل عن واقع العرض ذاته .

ولكننا نجد أن توزيع الأدوار الذى تمثله فى النص أسماء الشخصيات . وهى عنصر اساسى فى المسرحيات لا يمكن حذفه ، يشكل الإطار الأساسى للحدث ، فتسمية الشخصية يعنى استدعاء كل مكوناتها وتحديد موقعها بين الشخصيات الأخرى ، ويتضح ذلك بصورة مجسمة فى التراجيديا الكلاسيكية حيث تمثل أسماء الشخصيات مضمونا أسطوريا يضيف أبعاد مسبقة للشخصية مبنية على علاقة حضارية وثقافية مع جمهور افتراضى يشغل مساحة فعلية داخل النص ذاته تجعله يختلف تماما عن القارئ المنفرد للعمل السردى ، فدور للجمهور يعد أحد العناصر الواقعية فى الخلق المسرحى والتى تؤكد بشدة خاصية المسرح التى تخلط بين الخيال والواقع..؟

فالممسرحيات هى العنصر الواقعى الذى يترجم على مستوى النص مدى ارتباط الحكى المسرحى بمستوياته الثلاثة (الحدث – الحكاية – الحبكة) بالحاضر أى بواقع ما وراء النص الذى يتضمن خشبة العرض وجمهور الصالة .

ومن الأمثلة على ذلك مثلا نص مسرحية " بيكيت" " بدون كلام " وهو عبارة عن ممسرحية عريضة لا يصاحبها أى حوار ، ومع هـذا لا يمكـن التحدث هنا عن " سرد " نظرًا لأن الأمر يتعلق بالفعل بممـسرحه حركيـة (didascalie gestuelle) تتطلب تجسيدًا مسرحيا يخاطب الجمهور الحاضر .

ونعود إلى لفظ "درامى " ونرى مما سبق أنه يطرح مـشكلة قـراءة النص المسرحى بالمعنى الذى تناولته (A.Ubersfeld) فـى كتابهـا "قـراءة المسرح" أى حل رموزه ، فبخلاف الأعمال الخياليـة الأخـرى، لا يـشكل الخيال فى المسرح الإطار الوحيد للحكى ولكن هناك حاضر العرض وواقعه الذى يضيف بعدا آخر لهذا الخيال .

فالواقع المادى لخشبة العرض (وجود الممثلين – الديكور – الـصالة أى الجمهور) يضطرنا إلى إعادة تعريف العلاقة بين الحكى الخيالى وواقـع العرض فى العمل المسرحى ، فهو عمل متباين بصفة أساسية يتطـور فيـه العنصر الدرامى فى حاضر زمنى وواقع مكانى .

المصطلح الثانى : مصطلح المسرحة النصية "L'analyse dramaturgique"

وكلمة (dramaturgique) وهى صفة مشتقة من كلمـة (Dramaturgie) وهى كلمة تعنى بصفة عامة فن المسرح أو التأليف المسرحى ، وهى تستخدم حاليا بمعنى آخر لتدليل على الخاصية ما بعد النصية للنص المسرحى .

فماذا يضيف مصطلح المسرحة النـصية (Dramaturgique) وبمـاذا يختلف عن درامى (Dramatique) ؛ يتعلق الأمـر فـى الحـالتين بتنـسيق العناصر الثلاثة للحكى الخيالى (الحكاية والحبكة والحدث) غير أن التنـسيق يختلف فى المنظور الدرامى عنه فى منظور المسرحة النصية الـذى يـضم ثلاثة أبعاد، فإلى جانب البعد الخيالى هناك البعد الزمنـى والبعـد المكـانى للعرض ويتجسد ذلك فى التواجد النصى لخشبة وجمهـور الـصالة اللـذين يشغلان مساحة حقيقية داخل النص ذاته كما سبق أن ذكرنا ويتضح من هـذه

المقارنة أن كلاً من اللفظين "درامـــى" (Dramatique) و"مـــسرحية نـــصية" (dramaturgique) يشير إلى استراتيجية تحليلية مختلفة .

فصفة "درامى" تشير إلى التطور الخيالى للحدث الذى يتجاهل حاضر المسرح كمساحة للعرض (Une aire De Jeu) وصالة للجمهـــور ، لـــصالح الواقع الخيالى الذى ينفصل فى هذه الحالة تماما عن الحدود التـــى يفرضـــها الإطارات الزمنى والمكانى لواقع العرض الذى يشمل بالـــضرورة عنـــصر الجمهور بينما يمثل لفظ "المسرحة النصية" (Analyse dramaturgique) تناولا أكثر ملاءمة لدراسة بناء النص المسرحى الذى يساهم بشكل أساســـى فـــى تكوين المعنى .

ويميل استخدام لفظ درامى إلى أن يصبح محدودا فيستخدم فى دراسة أحد مستويات النص المسرحى أى الجانب الخيالى منه ، ويرتبط هذا اللفـــظ بصفة خاصة بفترة كان المسرح يعد فيها عملا أدبيًا بالدرجة الأولى .

وبناء على ذلك نستطيع أن نقول أنه لا يوجـــد تنـــافس لفظـــى بـــين مـــصطلح " درامـــى" (dramatique) ومـــصطلح المـــسرحة النـــصية (dramaturgique) .

المصطلح الثالث : مصطلح الشعرية "Poétique"

ليس المقصود ، هنا بهذا المصطلح "الشعرية" المختـــصة بالـــشعر ، ولكن الشعرية المختصة بدراسة بنية النص المسرحى .

وإذا لم يكن هناك تنافس لفظي بين مصطلح " درامـــى" (dramatique) ومصطلح المـــسرحة النـــصية (dramaturgique) فـــى مجـــال الدراســـات المسرحية، فإن هذا التنافس قائم بين مصطلح الشعرية (أى علم ونظريـــات تحليل النصوص الدرامية) والمسرحة النصية (أى دراســـة البنيـــة النـــصية للنصوص المسرحية) ففى كلتا الحالتين يتعلق الأمر بدراســـة بنيـــة العمـــل المسرحى ذاتها فنحن نتحدث فى إطار تحليل هـــذه النـــصوص عـــن (La

(Poétique dramatique "الشعرية الدرامية " ، وكذلك عن La Dramaturgie dramatique) " المسرحة النصية الدرامية .

فما الفرق بين كل من هذين المصطلحين ؟

من المعروف أن الشعرية هى مصطلح من مصطلحات أرسطو يدل على نظريته التى تهدف إلى استنباط العناصر والوسائل التى تساعد على تحليل النصوص ودراسة أشكالها وتصنيفها اعتمادا على المنهج الوصفى .

وعلى عكس هذا المفهوم الذى يعتمد اساس على وصف واستنباط وسائل صناعة النص المسرحى والذى يتيح تصنيف هذه النصوص وفقا لقواعد تحكم بنائها ، فإن مفهوم المسرحة النصية بمعناه الحديث (Dramaturgie) يعتمد على تحليل خاصية النص المسرحى الذى يتميز بأبعاده الثلاثة .

ومن المعروف أنه منذ النظرية الشعرية لأرسطو فى العصر الكلاسيكى إلى النظريات الشعرية فى العصر الحديث ، أتاح الاهتمام بمسائل البنية فى النص المسرحى تقديم نماذج مختلفة لأشكال التأليف المسرحى وفقا لمعايير وقواعد محددة تقوم لدى برشت (Brecht) مثلا على السرد فى المسرح.

فما الذى يميز شعرية أرسطو ، والذى يجعل منها بخلاف النظريات الشعرية الأخرى أساس لكل الدراسات النقدية والتحليلية الخاصة بالمسرح حتى الأن ؟

هل لأن كتاب أرسطو الذي يحمل عنوان الشعرية (والمعروف بفن الشعر) هو أقدم كتاب يتناول هذا المفهوم .

مما لاشك فيه أن هذا الكتاب هو أهم ما نعرفه فى هذا المجال فالكتابة فى هذا الشأن لم تخرج عبر تاريخها وحتى الأن عن إطار المفاهيم المرسومة فى هذا الكتاب .

لكن نظرية أرسطو لا تقتصر على هذا الإطار النموذجى وإذا نظرنا وراء هذه القواعد الثابتة للتأليف المسرحى نجد برنامجا لتحليل البنية المسرحية يصلح لدراسة أى عمل مسرحى يجعل من نظرية أرسطو إلى جانب كونها أول نظرية شعرية ، أول نظرية فى مفهوم " المسرحة النصية".

وهى بذلك تجسد التنافس اللفظى بين مصطلح "الشعرية" ومصطلح "المسرحة النصية" ، فهى تجمع بين النظرية الشعرية التى تستنبط قواعد بناء النص الدرامى وفقا لنوعه ، والنظرية التحليلية التى تطرح المفهوم الجديد لمسرحة هذا النص بناء على طبيعته المميزة التى تمزج بالخيال عناصر واقعية .

فأرسطو هو أول من أعطى بعدا مسرحيا للمفهوم الدرامى ، فالمسرحة لديه تبدأ من النص من خلال مسرحة كل عناصره الدرامية وربطها بساحة العرض والجمهور المتلقى ، فإذا نظرنا إلى نظرية أرسطو نجدها تتكلم عن الحكاية والحبكة والحدث وهى نفس العناصر الدرامية للحكى ، ولكنه عندما يتحدث عن هذه العناصر يراها من منظور مسرحى يحولها من عناصر درامية إلى عناصر مسرحية ، تتضمن فى بنائها بعد المسرحة الذى يتعدى البعد الخيالى بإضافة بعد واقعي يفرض معايير مختلفة وفقًا للواقع الزمنى والمكانى الذى يحكم مسرحة النص.

لذلك فإن العودة إلى أرسطو تصبح هى البداية الضرورية لتدقيق مفاهيم المصطلحات المختلفة الخاصة بعناصر المسرحة النصية ووسائل دراستها .

المراجع

- Grilles GIRARD, Real OUELLET, Claude RIGAULT, *l'univers du Théâtre,* Presses universitaires de France, 1978.
- Corine HOOGAERT, Rhétorique de la Tragédie, Presses Universitaires de France, Paris, 2003.

- Marie-Clande HUBERT , *Le Théâtre* , ARMAND COLIN , Paris 2003 .

- Paul Louis MIGNON , *Panorama du théâtre au XX ' siécle* , GALLIMARD , Paris , 1978 .

- Patrice PAVIS , *Le Théâtre Contemporain* , NATHAN / VUEF , Paris , 2002 .

- Patrice Pavis , *Dictionnaire du Théâtre* , Editions Sociales , 1980 .

- Jean-Pierre RYNGAERT , Introduction à L'analyse du Théâtre , NATHAN / VUEF , Paris , 2002 .

- Véronique STERENBERG , La Poétique de la Comédie , SEDES, 1999 .

- Anne UBERSFELD , Lire Le Théâtre III , BELIN , Paris 1996 .

- Anne UBERSFELD , Les Termes Clés de L'analyse du Théâtre , Editions du Seuil , Paris , 1996 .

- Anne UBERSFELD , Le Drame Romantique , Belin , Paris , 1993 .

- Anne UBERSFELD , L'ECOLE Du Spectateur (Lire Le Théâtre II) Messidor , Paris , 1981 .

- Anne UBERSFELD , Lire Le Théâtre , Editions Sociales , Paris 1977 .

- Jean - Pierre VERNANT – Pierre VIDAL – NAQUET, Mythe et Tragédie en Grèce ancienne FRANÇOIS MASPERO , Paris 1982 .